
بائعة الكبريت
أجمل حكاياتي
CHIHAB Kids

أجمل حكاياتي

بَائِعَةُ الْكِبْرِيتِ



مقتبسة من حكايات هانس كريستيان أندرسن
رسوم : منصور عموري





حَدَثَ ذَلِكَ لَيْلَةَ السَّنَةِ الْجَدِيدَةِ. فَي ذَلِكَ الْمَسَاءِ، كَانَ الْجَوُّ بَارِدًا وَ اللَّيْلُ شَدِيدَ السَّوَادِ وَ الثَّلْجُ يَتَسَاقَطُ بِغَزَارَةٍ. فِي هَذَا الظَّلَامِ الدَّامِسِ، كَانَتْ فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ تَمْشِي فِي الشَّارِعِ عَارِيَةَ الرَّأْسِ حَافِيَةَ الْقَدَمَيْنِ. عِنْدَمَا غَادَرَتْ بَيْتَهَا الْفَقِيرِ، كَانَتْ تَنْتَعِلُ خُفَّيْنِ قَدِيمَيْنِ وَ أَكْبَرَ مِنْ حَجْمِ قَدَمَيْهَا بِكَثِيرٍ. وَ لَمَّا كَانَتْ تَقْطَعُ الطَّرِيقَ فَقَدَتْهُمَا بَيْنَ عَرَبَتَيْنِ. اِخْتَفَتْ فَرْدَةٌ تَحْتَ عَجَلَةِ عَرَبَةٍ مُسْرِعَةٍ وَ خَطَفَ طِفْلٌ الْفَرْدَةَ الْأُخْرَى لِيَصْنَعَ مِنْهَا زَوْرَقًا.



تَابَعَتِ الطِّفْلَةُ الْمَشْيَ حَافِيَةً وَ هِيَ تَحْمِلُ كَمِّيَّةً كَبِيرَةً مِنَ الْكِبْرِيتِ فِي مِئْزَرِهَا الْبَائِسِ، و عُلْبَةً مِنْهُ فِي يَدِهَا. اِزْرَقَّتْ قَدَمَاهَا الْحَافِيَتَانِ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ وَ تَوَرَّمَتَا. لَقَدْ كَانَ يَوْمُهَا سَيِّئًا إِذْ لَمْ يَشْتَرِ مِنْهَا أَحَدٌ وَ لَوْ عُودَ كِبْرِيتٍ. كَانَتْ تَشْعُرُ بِالْبَرْدِ وَ الْجُوعِ لَكِنَّهَا كَانَتْ خَائِفَةً جِدًّا مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْبَيْتِ، لِأَنَّ وَالِدَهَا سَيَضْرِبُهَا إِنْ عَادَتْ بِدُونِ نُقُودٍ. كَانَ الثَّلْجُ مُسْتَمِرًّا فِي التَّسَاقُطِ، وَ رَسَمَتْ أَنْدَافُهُ عَلَى خَصْلَاتِ شَعْرِهَا الْأَشْقَرِ أَشْكَالاً تُشْبِهُ رِيشَ بَجَعٍ أَبْيَضَ ؛ لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَهْتَمُّ بِشَعْرِهَا. كَانَتْ تَعْرِفُ فَقَطْ أَنَّهَا لَيْلَةُ رَأْسِ السَّنَةِ، وَ أَنَّ جَمِيعَ الْأَطْفَالِ سَيَجْتَمِعُونَ مَعَ آبَائِهِمْ فِي وَلِيمَةٍ كَبِيرَةٍ.



جَلَسَتِ الطِّفْلَةُ بَيْنَ مَنْزِلَيْنِ وَ هِيَ تَرْتَعِشُ مُتَجَمِّدَةً. لِمَاذَا سَتَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ ؟ لِتَجِدَ وَالِدَهَا غَاضِبًا، وَ الْبَرْدَ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ الْخَارِجِ ؟ فَقَدْ كَانَتِ الرِّيحُ تَخْتَرِقُهُ مِنْ خِلَالِ شُقُوقِ الْجُدْرَانِ الْكَثِيرَةِ. كَانَتِ الْمِسْكِينَةُ بِالْكَادِ تَسْتَطِيعُ تَحْرِيكَ أَصَابِعِهَا الَّتِي جَمَّدَهَا الْبَرْدُ، فَفَكَّرَتْ فِي إِشْعَالِ عُودِ كِبْرِيتٍ عَلَّهُ سَيُدَفِّئُهَا. أَشْعَلَتْ عُودًا، فَسَمِعَتْ فَرْقَعَةً مَرِحَةً وَ صَعِدَتِ الشُّعْلَةُ وَاضِحَةً وَ دَافِئَةً بَيْنَ يَدَيْهَا. شَعَرَتِ الطِّفْلَةُ فَجْأَةً أَنَّهَا جَالِسَةٌ أَمَامَ مِدْفَأَةٍ نُحَاسِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، فَسَارَعَتْ إِلَى تَمْدِيدِ رِجْلَيْهَا لِتُدَفِّئَهُمَا لَكِنَّ الْأَوَانَ قَدْ فَاتَ، فَقَدِ اخْتَفَتِ الْمِدْفَأَةُ وَ لَمْ يَبْقَ سِوَى عُودِ كِبْرِيتٍ أَسْوَدَ بَيْنَ أَصَابِعِهَا.



قَرَّرَتِ الطِّفْلَةُ أَنْ تُشْعِلَ عُودًا آخَرَ وَ كَانَتْ شُعْلَتُهُ أَكْثَرَ إِشْرَاقًا وَ أَكْثَرَ بَهَاءً. فَتَرَاءَتْ لَهَا حُجْرَةٌ تَتَوَسَّطُهَا طَاوِلَةٌ مُزَيَّنَةٌ بِخَزَفٍ جَمِيلٍ وَ عَلَيْهَا إِوَزَّةٌ كَبِيرَةٌ مُحَمَّرَةٌ مَوْضُوعَةً عَلَى طَبَقٍ جَمِيلٍ. فَجْأَةً، انْزَلَقَتِ الْإِوَزَّةُ مِنَ الطَّاوِلَةِ وَ اخْتَفَتْ وَ لَمْ يَبْقَ أَمَامَ الْفَتَاةِ إِلَّا الشَّارِعُ الرَّمَادِيُّ الْبَارِدُ. كَانَ ذَلِكَ لَا يُطَاقُ. كَانَتِ الطِّفْلَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرَى مُجَدَّدًا تِلْكَ الْمِدْفَأَةَ الَّتِي كَانَتْ تَشِعُّ الدِّفْءَ وَ تِلْكَ الْإِوَزَّةَ اللَّذِيذَةَ الَّتِي كَانَتْ تَصِلُهَا رَائِحَتُهَا.



أَشْعَلَتِ الْبَائِعَةُ الصَّغِيرَةُ عُودًا ثَالِثًا، فَرَأَتْ نَفْسَهَا تَتَنَقَّلُ لِتَوِّهَا فِي بَيْتٍ جَمِيلٍ. كَانَتْ هُنَاكَ شَجَرَةُ عِيدِ مِيلَادٍ تَلْمَعُ بِزِينَتِهَا الْمُبَهْرَجَةِ، وَ كُرَاتٍ مِنْ كُلِّ الْأَلْوَانِ. وَ كَانَتْ فَوَاكِهُ وَ لُعَبٌ مُعَلَّقَةٌ فِي الْأَغْصَانِ أَيْضًا. أَمْسَكَ بِيَدِهَا أَطْفَالٌ كَانُوا يَدُورُونَ حَوْلَ الشَّجَرَةِ وَ أَدْخَلُوهَا فِي دَائِرَتِهِمْ. أَرَادَتِ الْبِنْتُ أَنْ تَرْكُضَ أَيْضًا لَكِنَ اللَّيْلَ عَادَ مِنْ جَدِيدٍ.



بَدَأَتِ النُّجُومُ تَلْمَعُ فَوْقَ الشَّارِعِ الْمُظْلِمِ الْمَهْجُورِ. كَانَ بَعْضُ الْمَارَّةِ النَّادِرِينَ يُسْرِعُ الْخُطَى لِلْاِلْتِحَاقِ بِأَصْدِقَائِهِم وَ عَائِلَاتِهِم. كَانُوا يَمْشُونَ بِخُطَى وَاسِعَةٍ دُونَ أَنْ يَرَوْا بَيْنَ الْمَنْزِلَيْنِ الْفَتَاةَ الَّتِي كَانَتْ مُنْكَمِشَةً عَلَى نَفْسِهَا وَ هِيَ تَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ. مَرَّ شِهَابٌ تَارِكًا وَرَاءَهُ خَطًّا طَوِيلًا لَامِعًا، وَ خَمَّنَتِ الْبِنْتُ أَنَّ أَحَدَهُمْ سَيَمُوتُ. كَانَتْ جَدَّتُهَا الْعَجُوزُ، وَ هِيَ الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي أَحَبَّها، قَدْ أَخْبَرَتْهَا بِذَلِك : عِنْدَمَا تَسْقُطُ نَجْمَةٌ فَهَذَا يَعْنِي أَنَّ رُوحًا صَعَدَتْ إِلَى السَّمَاءِ.



أَشْعَلَتِ الْفَتَاةُ عُودًا آخَرَ، وَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ظَهَرَتِ الْجَدَّةُ كَمَا فِي الْمَاضِي بِطَبْعِهَا اللَّطِيفِ وَ الطَّيِّبِ. « جَدَّتِي ابْقَيْ هُنَا، أَوْ خُذِينِي مَعَكِ، لَا تَتْرُكِينِي وَحْدِي. أَعْرِفُ أَنَّهُ عِنْدَمَا يَنْطَفِئُ عُودُ الْكِبْرِيتِ سَتَخْتَفِينَ كَكُلِّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي رَأَيْتُهَا حَتَّى الْآنَ، كَالنَّارِ الَّتِي كَانَتْ تُدَفِّئُنِي جَيِّدًا، وَ الْإِوَزَّةِ ذَاتَ الرَّائِحَةِ الطَّيِّبَةِ وَ شَجَرَةِ عِيدِ الْمِيلَادِ. سَتَطِيرِينَ وَ أَبْقَى أَنَا وَحْدِي فِي شَارِعٍ مُظْلِمٍ دُونَ أَحَدٍ يَرْعَانِي وَ يَأْخُذُنِي إِلَى بَيْتٍ لَنْ أَبْرُدَ فِيهِ وَ لَنْ أَجُوعَ ». أَفْزَعَتْهَا فِكْرَةُ أَنْ تَبْقَى وَحِيدَةً مِنْ جَدِيدٍ فَأَشْعَلَتْ كُلَّ عُلْبَةِ الْكِبْرِيتِ. ظَهَرَتْ جَدَّتُهَا مِنْ جَدِيدٍ وَ كَانَتْ جَمِيلَةً فِي فُسْتَانِ الْقَطِيفَةِ الْأَسْوَدِ الَّذِي كَانَتْ لَا تَرْتَدِيهِ إِلَّا فِي الْأَعْيَادِ. ابْتَسَمَتِ الْعَجُوزُ بِحَنَانٍ لِحَفِيدَتِهَا وَ ضَمَّتْهَا إِلَيْهَا،ثُمَّ ارْتَفَعَتِ الْاثْنَتَانِ نَحْوَ السَّمَاءِ تَحْتَ نُورِ عُلْبَةِ الْكِبْرِيتِ الْكَبِيرَةِ.



طَلَعَ نَهَارُ السَّنَةِ الْجَدِيدَةِ وَ كَانَ مُكْفَهِرًّا وَ رَمَادِيًّا. اِكْتَشَفَ مَارٌّ فِي زَاوِيَةِ شَارِعٍ طِفْلَةً صَغِيرَةً بِخُصْلَاتِ شَعْرٍ أَشْقَرٍ بِدُونِ حَيَاةٍ. وَ كَانَ مِنْ حَوْلِهَا بَقَايَا أَعْوَادِ كِبْرِيتٍ مُحْتَرِقَةٍ. فَكَّرَ الرَّجُلُ أَنَّ الْفَتَاةَ الصَّغِيرَةَ أَرَادَتْ أَنْ تُدَفِّئَ نَفْسَهَا وَ لَمْ يَشُكَّ أَنَّ الطِّفْلَةَ قَدْ غَادَرَتِ الْعَالَمَ فِي ضَوْءٍ جَمِيلٍ مُمْسِكَةً بِيَدِ جَدَّتِهَا.